مفهوم أدب المعركة

بقلم غالب طعمه فرمان

تنشر « الآداب » والمجلات والصحف العربية الاخرى فيضا من الشعر والنثر يتحدث عن نفسية العربي وهو يقاتل أو يتراجع ، يقف في خط النار أو يتحرف شوقا الى الوقوف في خط النار ، يعيش لحظات النكسة والهزيمة العسكرية ، يتخطاها أو يقف عندها ، يتأمل في أسبابها أو يندب السلاح الذي خانه .. ويسمي كل ذلك « أدب المعركة » .

ويوقد الشعراء والكتاب قناديل خيالهم كلها ليروا على ضوئها جنديا جريحا في صحراء سيناء ، أو أسيرا بين أيدي الاعداء ، أو عائلة عربية بين مخالب المعتدين ، أو جدارا يسقط على الآمنين . وأغلب أولئك لم يروا شيئا من هذا كله ، بل سمعوا به أو قرأوه على أعمدة الصحف ، واعتمدوا الحماس والنية الحسنة ، وبعضهم استجاب لقانون العرض والطلب ، فاختزلوا العالم الخارجي الى الحد الادنى ، وفاضوا في تصوير أغوار الانسان العربي ، وجعلوا من عقله الباطن وعاء لما تصوروا انه الحق ، وانه منطق الاشياء ، وانه جراح النكسة ، وعبر الماضي ، ولبنات المستقبل .

وطبيعي ان كل ذلك نتيجة طبيعية للمعركة التي خاضها العرب ، وانه غذاؤنا اليومي الذي لا غنى عنه ، وانه صحيح ومنطقي ، لانه يعكس جزءا من الواقع العربي ، واقع وجود معركة مصيرية ، وجود خطوط نار ، وانسان عربي على خطوط النار هذه . واقع وجود مؤامرة مدبرة على الكيان العربي كله ، وضرورة حياتية لتعبئة كل الطاقات ليخرج الانسان العربي منتصرا مرفوع الجبين .

وطبيعي أيضا ان معيار نجاح هذا اللون من الادب **هو الصدق الفني والصدق الواقعي للتجربة ، أي مقدار** سلامة الادوات ومتانتها ، وواقعية التجربة ورحابتها وعمقها .

ولا اعتراض لي على ذلك . ولكن الذي أريد أن أقوله ان هذا الذي اصطلحنا عليه بأدب المعركة هو ليس الا جزءا من هذا الادب ، وان أدب المعركة ، عندي ، أشمل وأعمق .

قد يكون هذا اللون من الادب ، في هذه اللحظة التاريخية بالذات ، الجزء الابرز والاكثر الحاحا ، ولكن شريطة أن لا يكون على حساب الاجزاء الاخرى ، وأن لا يكون منفصلا عنها ببرزخ كبير ، وان لا يسهم في تشويه مفهوم أدب المعركة ككل .

أدب المعركة كما أفهمه هو الادب الذي يتناول الانسان العربي في واقعه ، في وطنه العربي الكبير ، ويضعفه أمام المشاكل الحياتية في موقف يبرز فيه معدنه ، ويظهره كخلية حية في الكيان العربي يتعانق فيها الماضي والحاضر عناقا غير مفلق ، عناقا يومض بومضات المستقبل .

وأنا أعني كل كلمة قلتها هنا . فانها جميعا أدوات أدب المعركة عندي ، مستلزماته الضرورية ، أصابعه الكاملة السليمة القابضة على السلاح .

أدب المعركة يتناول الانسان العربي حقا ، ابن التربة **العربية السمراء ، ابن المناخ القاري المتقلب ، الانسان** الذي يعيش على حافة الصحراء ان لم يكن في عريها وجحيمها ، الانسان الذي يدخل العالم الجديد حاملا معه رواسب ماضيه ، روائح الحرائق التي شبت في أرضه ، وآثار الجحافل التي جاءت غازية وولت مهزومة . وهو انسان متفتح ما تزال الدهشة من سماته ، وعدم الاتقان من ميزاته ، والصبر سجية يحاول ان يكتسبها . وأنا ، هنا ، لا أريد أن أعدد صفات الانسان العربي ولكنني أخلص الى القول بأنه انسان ذو ميزات ، وانه ابن الواقع العربي والارض العربية ، والتاريخ العربي . وأدب المعركة يجب أن يفهم سمات الانسان العربي حين يتحدث عنه ، وأن لا يلصق به ملامح من جنسيات أخرى .

هناك بعض الكتاب يعرضون انسانا لا هوية له ، انسانا مسخا أو كشكولا يجمع صفات غريبة متناقضة ، ويجعلونه يعيش في بغداد أو القاهرة أو عمان ، يعايشنا ، وينكر علينا حياتنا ، ويعطونه الحق في التبرؤ منا باعتبارنا متأخرين ، غلاظ القلوب ، غير متعمقين معنى **الوجود الانساني ، ومأساة الموت ، وفلسفة الضجر . أذكر** ان أحد قصاصينا الكبار أنشأ مجموعة قصصية كاملة يقلد فيها كافكا ، ويعرض فيها نماذج مخيفة شنعاء لا معقولة خائفة مطاردة كشخصيات كافكا . ويريد أن نوقن ان هؤلاء يعيشون بيننا ، وان هؤلاء هم النماذج الاجد والاحدث للانسان العربي ، وان الحكمة التي تتفجر من أفواههم هي الدواء لكل دمامل واقعنا .

أنا لا أنكر ان التفكير في الموت والضجر والعبث واللامعقولية قد تصيب الانسان العربي ، كما تصيب أي انسان ، وقد تسقمه سقما مميتا ، ولكنها ظاهرة محدودة وقليلة . وحتى اذا ضجر الانسان العربي لا يضجر على النمط الروماني الذي يصوره مورافيا ، ولا يعبث العبث الفلسفي الاسطوري الـــذي عبث به كامو ، ولا يبـرز لا معقولية الاشياء على الطريقة اليونسكوية . الضجـــر صفة قد تصيب الانسان ، ولكنها تتخذ أشكالا مختلفـة لها نكهة الواقع المعاش وطابعه .

ولعل آفة الادب العربي الحديث هي الافراط فـي التفكير في الموت ، الافراط في فلسفة الموت حتى جعلنا نتشممه في أصفى لحظات الحياة . ولربما لاننا أكثرنـا من التفلسف في الموت قبل ابانه لم تعد الحياة تحمل لنا مذاقها المتجدد المعاني ، وأصبحنا نعد الايام فقط معانين تلك اللحظة التي فلسفها الكتاب بشكـل « مقرف » .. الاحتضار ، ونحن بكامل قوانا الجسدية .

واذا فكرت في سبب التشبع بالموت ونحن أحيـاء **قفز الى ذهني ذلك السيل العارم مـن الادب المترجم ذي** الطابع الواحد ، أدب أوروبا البرجوازية المحتضرة الممزقة المثقلة الضمير بالذنوب ، أوروبا التي فقـــدت الهدف ، **وطمرت تقيحـــات جسدها بألوان صارخة مـن الاغطية** والفلسفات والهوايات والتسليات ، ووصفات نسيـــان الواقع . افتح أي كتاب مترجم تجده وكأنه معرض لاسقام أوروبا المريضة الى حد الدنف . والقليل جدا من الكتب المترجمة تشم منه رائحة العافية . وطبيعي ان في أوروبا أدبا سليما مثلما فيها بقع ما تزال حية . ولكن ، لاسباب لا أريد تعدادها هنا ، نجد الرائجين عندنا كتابا منحلين لا يحتلون حتى الصف الرابع فـــي الآداب الاوروبية . أذكر منهم كولن ولسن الكاتب الانكليزي المحظوظ جـدا عندنا ، والمهمل الذي قلما تذكره مجلة انكليزية محترمة. والمصيبة أن طائفة من كتابنا تعتبر هؤلاء الكتاب المثـال الواجب احتذاؤه ، وان شخصياتهم حية وقوية الايحـاء وجذابة حتى تستحوذ عليهم ، وتجعلهم يتصورون انهـا موجودة عندنا أيضا ، وبالكثرة التي تخولهم أن يقدموهـا نماذج للانسان العربي . وهم بذلك يفتئتون على الواقع ويشوهون الانسان العربي .

وطبيعي أن هؤلاء لا يمكن ، وهم بهذه العقليـــة ، أن يكتبوا شيئا من أدب المعركة .. لانهم يفتقرون الـى ركن أساسي من أركانه هو المعرفة الصحيحة بالانســان العربي .

ثم ان معرفة سمات الانسان العربي وحدها لا تصنع ادب المعركة . بل لا بد مـــن الاحساس بالمشاكل التـي يعانيها ، وهي مشاكل بعضها يرتبط بمقومات وجـوده المادية ، وبعضها بمعنى وجوده ، بكرامته ، بحقوقه كانسان ما خلقت الخيرات الا له ، وما صيغت خيـــر الشرائع والقوانين الا حفاظا على حياته ، وصونا لعزته ولحريتـه وشرفه. وطبيعي ان هذه المشاكل لا تضمها دفتا كتاب.. بل تلتقطها العين البصيرة ، والتجربة المستديمة، والتأمل الطويل في دنيا الناس ، والمعايشة لهم . وقـــد يختلف الكتاب في اي المشاكل ابرز ، وايها اجدر بالتقديم ، لان لكل كاتب نظراته ومفضلياته . ولكن الذي اريد ان اؤكده هنا ان سبب الهزيمة العسكرية التي حلت بنا في حزيران **المأساوي غيـر بعيد عن هذه المشاكل . ان الانسان الذي** طلب اليه ان يدافع عن شرف امته وعن ارضها ذهب الى سوح المعارك وهو مثقل بمشاكل وازمات لا تحصى،ذهب غير مطمئن على مصير من خلفه وراءه في المؤخرة ، ذهب وهو عارف ان موته قد يعرض وجود عائلته الـــى الموت بغير سلاح ناري . ذهب رازحا تحت اعباء علاقات قـــد تكون غريبة على جوهر الانسان ، ذهب مكبوتا ومقهورا ، **ذهب غير مرفوع الرأس بسبب تسلط رؤسائه أو بسبب** قلقه من مصير عائلته .

واعتقد ان من اسباب النكسة او الهزيمة العسكرية هو ان انظمتنا لم تفعل الكثير لتخفيف اعباء هذا الانسان الذي كان يصنع الخيرات المادية ، وحين دعـــا الداعي ذهب ليقاتل . من يدري ! فقد يكون الذي انهزم هـــو علاقاتنا القديمة المبنية على التحكم والجبروت ، على املاء الارادة ، واصدار الاوامر ، وحل المشاكل بالكلام المعسول، واعتبار المواطن مذنبا حتى يثبت براءته ، وذلك بالتخلي عن كل افكاره ، عن كل عواطفه ، والركوع امـــام كرسي الحاكم . من يدري ! فقد يكون الذي انهزم هو المبدأ الذي تمسك به بعض حكامنا الى حد التزمت : من لا يشاركك رأيك فهو عدوك ، مباح لك ان تهينه ، وتحاربه في رزقه، وتسلبه اعز حقوقه . ولك مطلق الحرية في ان تنسى انه مواطن مثلك ، له نفس حقوقك ، ونفس كرامتك ، ونفس حريتك . من يدري ! فقد يكون الذي انهزم هو العقليـة التي كنا ننظر بها الى مشاكل الانسان العربـــي ، عقلية علاج العلل بالتعاويذ والصيـغ المأخوذة مـــن الكبت ، والشعارات الديماغوجية ، والصياح والخطب والاناشيد، وحفلات المناسبات الشبيهة بحفلات المزار، والاستعراض، **وهز القبضات بالهواء ، واطلاق « الفشـــك »** الفارغ على حد قول اخواننا السوريين !

المطلوب من اديب المعركة ان يتخلى عن هذه الطريقة، وينظر الى مشكلات الانسان العربي بشجاعة ، ويعالجها بطريقة واقعية ، يترصدها ويتقصاها ، ولا يخاف في ذلك من سيف جلاد .

ومن اركان ادب المعركة ايضا ان يضع الانســان العربي في موقف . ان وضع اي انسان في موقف يكشف عن جوهر ذلك الانسان . ان الانسان في موقف هـــو

الرعب واطفال القدس

سألت الصيف : وماذا عن اطفال القدس ؟
من ولدوا اليوم ومن ولدوا الامس
هل جاعوا ، هل عطشوا ، هل ماتوا ؟
وسألت الريح :
هل بعد الغربة من بؤس يا ريح ؟

***

في صدري احملكم يا اطفال القدس
وعلى ظهري احمل بيتي
واسير اسير
حافي القدمين وعاري الرأس
اسير اسير .
وعلى اسوار اريحا قابلت الشمس
وقفت لاسأل اسوار اريحا
هل مر مسيح الاطفال ،
هل شهدت رعب الارض العطشى
هل شهدت جوع الاطفال ،
وسمعت الصوت الهادىء يروي القصه ..
. . . . . .
وعلى اسوار اريحا قابلت الشمس
والرعب يحوم في ساقي يشنج اعصابي
ويخثر في شرياني الدم
وعلى ظهري تتدحرج قطرات عرق
وبحلقي ترتعش الغصة ،
واعود اسير ، اسير
ابحث في ذاكرتي ،
ابحث عن تلك القصة
لم تسعفني ذاكرتي يا احبابي
لا أذكر كيف ابتدأت
لكني ...
لكني اذكر يا اطفال القدس
كيف يموت الجلاد ،
وكيف انتهت القصة .

المانيا الغربية **عيسى علاونه**

الانسان في لحظة حاسمة ، في لحظة عري . لحظة يتساوى فيها الناس جميعا ، ولا تشفع فيها القاب ، ولا كلمات ، ولا دموع ، ولا تشنجات ، لحظة عمل فقط ، لحظة يكشف فيها الجبان عن جبنه ، والخائف عن خوفه، والمنهار عن انهيار كل ما تدثر به . وطبيعي ان العرب ، **كبشر ، فيهم الجبناء والخونة والمنهارون ، والا لما كان** عندنا هذا الجيش من الصرعى المتهافتين في لحظات الاختيار واتخاذ المواقف الكثيرة في تاريخنا العربي. وانا لا اريد من اديب المعركة ان يصف فقط اولئك الذين اجتازوا لحظة الاختيار بشرف . ولكن ارجو ان يبرز الانسان العربي من خلال الرؤيا الشاملة ، كخلية حية في الكيان العربي . وطبيعي ان هناك خلايا منحلة ، متفككة، مفصومة عن هذا الكيان ، عن الواقع الذي تعيشه. وادب المعركة لا يحفل بهؤلاء لان نماذجه من طينة اخرى ، من خلايا اخرى .

واذا ما صور أديب المعركة الانسان العربي كخلية حية ، فانه سيصور بالضرورة تلاقي الماضي والحاضر في نفس الانسان ، ويلمح الومضات المشيرة الى المستقبل .

تلك الصورة الكاملة التي اتخيلها عن ادب المعركة ، فان صياغة الانسان العربي تجري في رحاب وطنه الواسع ، وان لحظات الاختيار واتخاذ موقف تتم في الجبهة وفي المؤخرة سواء بسواء . والذين يفهمون الانسان العربي كما هو بكل مشاكله ومطامحه ونقاط الضعف فيه يستطيعون أن يتصوروه بأية صورة : فدائيا، او جنديا جريحا ، او مهزوما عائدا الى وطنه بجروحه النفسية الاعمق والاشد اثرا . ولعل عافية الجزء الذي يصطلح عليه الان بأدب المعركة تتوقف على عافية الكل الكامل لادب المعركة ، ففي المؤخرات لا تصنع فقط الاسلحة التي يحارب بها في جبهات القتال ، بل ايضا الانسان الذي يمسك بهذه الاسلحة ويجعل لها قيمة .

لست ادري مقدار اشتطاطي وترادادي البديهيات والمواعظ في هذه الكلمة . ولكنها مناسبة خطرت ، وادباء اخوان التقيت بهم فتحدثوا كثيرا عن ادب المعركة ، وانا البعيد عن ارض المعركة ، فآثرت ان اقول كلمتي ، فانها المنهاج الذي احاول الاعتماد عليه فيما اكتب .

موسكو **غائب طعمة فرمان**